الإمام الجليل الشيخ أبو البركات الدردير ومأثوراته الأدبية

الدكتور احمد احمد منصور نفادى

فى مجال الحديث عن مأثورات العارف بالله أبى البركات الشيخ أحمد الدردير رضى الله عنه الأدبية ، لابد لنا من وقفة نتأمل فيها سيرته الطيبة ، ونتعرف عليه ، ونلقى بعض الضوء على عصره الذى عاش فيه ، كما نقف على جوانب لا بأس بها من جوانب شخصيته ، حيث إن تلك كلها أمور لا بد منها لمن يريد أن يتعرف على شخصية من الشخصيات العلمية أو الأدبية ، فالإنسان وليد عصره ، وابن بيئته ، يستمد منهما تجاربه ويستقى ثقافته ، ويتبادل مع أبنائهما من حوله عملياً التأثر والتأثير ... فمن الشيخ الدردير رضى الله عنه ! وفى أى بيئة نشأ ؟ ومن أى مورد استمد ثقافته ؟ وماذا عن تآليفه العلمية والأدبية ؟ وإنتاجه الشعرى وما خصائص شعره ؟

الشيخ الدردير :

هو أبى البركات أحمد بن محمد بن أحمـــد بن أبى حامد الدردير ، ولقب الدردير هو اللقب الغالب على الشيخ أبى البركات رحمه الله ورضى عنه كما كان الغالب على جده أبى حامد ، والسر فى اختيار هذا اللقب يرجع فى أول أمره إلى أن الجد الأعلى للشيخ خلال نزوحه بأسرته إلى حيث تقع قرى بنى عديات الآن نزل ومن معه ضيفا على رجل عربى الأصل من قبيلة بنى محارب كان يسمى بالدردير وقد عرف الرجل المحاربى المضيف بتقواه وصلاحه وكرمه الأمر الذى أثار إعجاب ضيفه وجعله يتوسم فيه الخير وتصادف أن ولد لجد

الشيخ الأعلى غلام خلال استضافته الشيخ المحاربى له فسماه بالدردير تيمنا باسم مضيفه المحاربى ، وتلك رواية ينقلها الشيخ حسن بن أحمد الهوارى عمن شاهدهم من العائلة الدردرية — وإن كان المؤرخ الكبير عبدالرحمن الجبرتى يذكر فى «عجائب الآثار» أن الشيخ الدردير نفسه وكان مناصرا له ذكر له عن لقبه أن قبيلة من العرب نزلت ببلدهم وكان كبيرها يلقب بالدردير ، فولد جده عند نزولهم بهم فلقب بذلك ، فهو لقبه ولقب جده من قبل (١)

وعموما فإن لقب الدردير أخذته عائلة الشيخ أبى البركات رضوان الله عليه ولقبته به كما لقبت به جده من قبل ، عن قبيلة بنى محارب العربية الأصل التى يقال إن نسبها ينتهى إلى قيس عيلان بن مضر بن نزار والتى نزحت من ليبيا إلى مصر وكانت تنزل على ضفاف بحر يوسف من أسيوط إلى الفيوم ، وسواء كانت عائلة الشيخ هى التى نزلت بها خلال نزوحها إلى حيث موقع بنى عديات اليوم أو كانت قبيلة محارب وفيها شيخها الدردير هى التى مرت ببنى عديات ونزل رجالها ضيوفا على أجداد الشيخ أبى البركات رحمه الله ورضى عنه فإن أهل بنى عديات عرب أصلاء ينتهى نسب جدهم الأعلى إلى عدى ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر القرشى ، فهم إذا من رهط أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد هاجر أبناء قبيلة بنى عدى إلى مصر فى خلال وزارة الصالح طلائع بن رزيك المتوفى سنة ٥٥٦ هـ للخليفة الفاطمى الفائز وكان معهم طائفة من بنى كنانة بن خزيمة ، ونزلوا بالدلتا بمنطقة البرلس ووجدوا من الصالح طلائع كثيرا من الإكرام ، كما يذكر القلقشندى فى صبح الأعشى ، وكان نزوح بنى عدى إلى هذه المنطقة التى توجد فيها قراهم المنسوبة إليهم الآن بمنفلوط فى القرن التاسع الهجرى حسبما فى

---

(١) عجائب الآثار ٢/٣٣

مخطوطة للشاعر العدوى المعاصر الأستاذ محمد عـلى مخلوف عن الامام أبى البركات .. حيث يقول « هذه الأسرة فرع من الدوحة العمرية عـلى التحقيق يرجع تاريخ وجودها فى البلدة إلى القرن التاسع الهجرى ، فهى تنتمى إلى بقية العمرى العدوى أحـد الاخوة الاربعة الذين وفدوا إلى بى عدى من ذلك القرن وكان بقية قاضى القبيلة كلها يفصل فى منازعها ويحكم فى خلافاتها .

وقد تربى رضى الله عنه فى كنف والده العالم الصوفى سيدى محمد بن أحمد ابن أبى حامد الدردير العمرى العدوى الذى كان عالما تقيا صالحا ورعا يشغل جميع أوقاته بمدارسة العلم وقراءة القرآن الـكريم والصلاة على النبى ﷺ ، والذى كف بصره فى أواخر أيامه فاشتغل بتعليم الاطفال القرآن الـكريم ، وكان فى جملة من قرأ عليه القرآن الـكريم الشيخ على بن أحمد بن مكرم الله الصعيدى العدوى المالـكى ، كما قرأ عليه أيضا ابنه الشيخ الدردير إلى سورة الفتح .

ولقد تحدث الشيخ الدردير عن أبيه رضى الله عنهما فقال « وكان الوالد رحمه الله تعالى رجلا صالحا عالما متقناً للقرآن ، فقد بصره فى آخر عمره واشتغل بتعليم الأطفال كتاب الله تعالى فحفظ القرآن على يديه خلق كثير ، وكان يعلم الفقراء حسبة لله تعالى لا يأخذ منهم صرافة ولا غيرها ، بل ربما واساهم من عنده ، وكان كثير السكوت لا يتكلم إلا نادرا وورده فى غالب أوقاته صلاة سيدى عبدالسلام بن مشيش رضى الله عنه ، وكان يبشرنى بأن أكون عالما (١)

ووالدة الشيخ هى السيدة « آمنة » بنت الحاج سلامة العلوانى العدوى الذى كان رجلا ثريا ذا تجارات مع أهل الواحات والسودان ، ولا زال

---

(١) بغية السالك لأقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك ص ٤

ينسب إليه فى بنى عدى طريق زراعى يعرف بطريق سلامة ، وكان رجلا صالحا رفض كثيرين ممن تقدموا لخطبة ابنتيه من ذوى اليسار ، وفضل أن يزوجهما الرجلين من ذوى الصلاح والتقوى كان والد الشيخ أحدهما .

وقد ولد الشيخ أبو البركات رضى الله عنه فى قريته بنى عدى سنة ١١٢٧ هـ أو سنة ١١٢٨ هـ ، وفى القرية تلقى تعليمه الأولى على يدى والده بكتاب القرية حيث تعلم مبادىء القراءة والكتابة والحساب ووجهه أبوه رحمه الله لحفظ القرآن الكريم استعدادا لإلحاقه بالأزهر الشريف بالقاهرة الذى كان آنذاك المباءة الوحيدة فى مصر للعلم والثقافة ولكن إرادة الله قد قضت أن ينتقل الشيخ الوالد إلى جوار الله والتلميذ الناشىء أبو البركات فى العاشرة من عمره ، فتنهض الأم الصالحة رضوان الله عليها بكفالته ورعايته ، حافزة إياه على الجد والمثابرة فى حفظ بقية القرآن الكريم وتحصيل ما كان يحصله مثله آنذاك فى كتاتيب القرى من مبادىء العلوم حتى تتحقق فيه فراسة أبيه الصالح ويلتحق بالأزهر الشريف ليكون عالما من علماء المسلمين ، وهنا لا بد لنا من ملاحظة أثر البيئة الصالحة المؤمنة فى تكوين الإمام الدردير حيث نشأه أبواه الكريمان فى عبادة الله .

وفى الأثناء التى صاحبت طفولة أبى البركات وفجر شبابه عندما التحق بالأزهر الشريف بالقاهرة مجاورا كانت مصر تعيش فى ظـــلام دامس من الاستبداد السياسى والظلم الاجتماعى وهبوط المستوى الثقافى حيث تمالأ عليها المماليك والأتراك العثمانيون ينهبون خيراتها ويثقلون كواهل أبنائها بالظلم والجبروت وأعمال السخرة والضرائب الباهظة والحرمان من المشاركة فى تصريف شئون بلادهم ، كما كانت الكتاتيب فى القرى والمدن منافذ الثقافة الوسيلة التى يطل منها المستطيعون من أبناء الشعب المصرى على آفاق المعرفة ولكنها آفاق محدودة لا تكفى لإقالة الشعب من عثرة الأمية والجهـــالة ، فالاختلاف إليها إختيارى حسب الرغبة والمقدرة ، والزاد العلمى الذى يقدم

فيها لم يكن يزيد على تعلم مبادىء القراءة والكتابة وشىء يسير جداً من الحساب بالإضافة إلى حفظ القرآن الكريم ، وهذا أمر لا يقوم بإعـــداد إنسان إعداداً كاملا لمسايرة ركب الحياة المتطور أو تأهيله لأن يلتحق بعمل حكومى يدر عليه شيئاً من الدخل الذى يكفل له حياة طيبة ، وبالتالى لا يصلح مطلقاً لتكوين عالم جليل القدر غزير الثقافة يهرع إليه الناس إذا ما واجهتهم مشكلة دينية أو دنيوية ، ولكنه يكفى فقط لتخريج عريف فى كتاب قصاراه أن يختلف إليه الصبى ، بعد رحيل شيخه عن الدنيا ، أو إمام الزاوية يصلى فيها إماما بمن حوله ويستعين على مطالب العيش بتلاوة القرآن الكريم فى سهرات رمضان والمناسبات المختلفة مقابل أجر ضئيل ، فاتجهت همم الراغبين فى العلم الطامحين إلى التزود بالمعرفة إلى الأزهر ، والأزهر وحده إذ كان آنذاك حصن الثقافة الوحيد وحامى حمى لغة القرآن الكريم وعلومه المختلفة منذ أن نزلت بالعالم الإسلامى نكبة التتار الذين اجتاحوا بلاده من الشرق إلى الغرب إجتياح السيل الجارف وأتوا على علماء المسلمين وأدبائهم قتلا وتنكيلا وعلى كتبهم تبديدا وإحراقا ، فلم تجد البقية الباقية من هؤلاء العلماء والمفكرين إلا الأزهر الشريف ملجأ يفرون إليه ويحتمون بأروقته وإلا مصر كنانة الله فى أرضـــه حرما آمناً يشعرون فى رحابه بالأمن والاستقرار ، فنجوا بأنفسهم إلى مصر واحتموا بأزهرها الشريف .

ومنذ ذلك الوقت ومصر تحمل زعامة العالم الإسلامى والعربى السياسية والفكرية فرجالها بقيادة سيف الدين قطز هم الذين هزموا التتار فى موقعة عين جالوت بمعونة إخوانهم من أبناء الشام ، وشعبها الكريم المضياف هو الذى فتح أبواب أزهره الشريف أمام الفارين بدينهم وعلمهم ، حيث ساهموا مع إخوانهم علماء مصر فى إثراء الحياة العلمية والأدبية فى حلقات العلم التى كان يختلف إليها الطلاب من شتى أقطـــار الأرض ، فى تلك الموسوعات العلمية التى تحوى كثيرا من نفائس العلم وذخائر الأدب ممثلة

أول دوائر معارف يعرفها العالم ومن أمثلة هذه الموسوعات : مسالك الابصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمرى ، وصبح الأعشى للقلقشندى ، ونهاية الأرب للنويرى الخ .

ولقد كان لهذه الموسوعات العلمية التي ضمنها هؤلاء العلماء معارفهم دور كبير في إنقاذ تراث علمي هائل أوشك أن يضيع بضياع مصادره العلمية ، من جراء تخريب التتار لعواصم العالم الاسلامي وتدمير تراثها العلمي والأدبي لولا أن هيأ الله لهؤلاء العلماء في الأزهر مكانا مطمئنا يملون فيه على طلابهم مكنون صدورهم ، وينقطعون بذلك عن التدريس مدة من الوقت مخافة أن ينسوا ما كانوا يحفظون أو يموتوا فيموت العلم بموتهم ولقد حافظ الأزهر الشريف على مر السنين على مكانته الروحية والأدبية تلك وتماسك في شموخ المتحدى الواثق من نفسه إبان العصر التركى المظلم الذى حاول فيه الأتراك أن يجردوا مصر من تراث حضارى وثقافى لتتاح لهم الفرصة الكاملة لإحلال لغتهم التركيه محل اللغة العربيه ، وظل يقدم لأبنائه الزاد الثقافى الشهى الذى يغذى عقولهم ويضىء أرواحهم ويحميهم من الانحراف في تيار الجهالة العمياء ولم تقتصر الدراسة فيه آنذاك على العلوم اللغوية والشرعية والعقلية مثل النحو والصرف والبلاغة واللغة والأدب والفقه والتفسير والحديث والكلام والمنطق الخ ولكن الثابت الذى لا يرقى إليه شك حسبما هو مدون في حاشية الشيخ الدمنهورى أنه كان يدرس به : علوم الحساب والميقات والجبر والمقابلة والمنحرفات وأسباب الأمراض وعلاماتها وعلم الاسطراب والهندسة والهيئة وعلم المزاول ، وعلم الأعمال الرصدية ، وعلم المواليد الثلاثة : الحيوان والنبات والمعادن وعلم استنباط المياه وعلاج البواسير وعلم التشريح وعلم لسع العقرب وتاريخ العقرب والعجم (١) ولقد ظلت هذه العلوم تدرس في

---

(١) الازهر في ألف عام ص ٧٧ .

الأزهر حتى أواخر القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن التركيز على تدريسها العلوم الشرعية واللغوية والعقلية ، وعليه فيكون الشيخ الدردير قد تلقى هذه العلوم وهضمها وبرز فيها ولا سيما وأنه نبت صالح فى بيئة تقية نقية كانت تتوسم فيه الخير وتتنبأ له بأن يكون عالماً من علماء الأزهر الشريف .

وقد تحدث الجبرتى المؤرخ الشهير الذى كان من معاصرى الشيخ وعلى صلة به فذكر أنه رضى الله عنه قد حبب إليه طلب العلم فورد الجامع الأزهر وحضر دروس العلماء. وسمع الحديث عن كل من الشيخ محمد أحمد الصباغ ، والشيخ الحفنى أيضا وصار من أكبر خلفائه ، وأفتى فى حياة شيوخه مع كمال الزهد والصيانة والعفة ، وحضر بعض دروس الشيخ الملوى والشيخ الجوهرى وغيرهما ولكن جل اعتماده وانتسابه على الشيخين الحفنى والصعيدى(١) .

ولقد ظهر نبوغ الشيخ الدردير رحمه الله ورضى عنه وثبتت كفاءته العلمية ، كما عرف بتقواه وورعه وقوة شخصيته بحيث أصبح جديراً بأن يكون شيخا ومفتياً للمذهب المالكى ، وناظراً على وقف الصعايدة بالأزهر وشيخاً على أهل الرواق وتلك كلها كانت مناصب هامة فى ذلك الوقت ولما بنى الأمير محمد بك أبو الذهب مدرسته المواجهة للجامع الأزهر سنة ١١٨٧ ـ ١٧٧٣ كان الشيخ الدردير يجلس فيها حصته من النهار لافتاء الناس وإفادتهم بعد إملاء دروسه بالأزهر كما كان رحمه الله علما من أعلام التصوف الزهاد والذين يعبدون الله على بصيرة ، فقد ظل يتلقى مبادىء الطريقة الخلوتية وأصولها على يدى شيخه وأذن له فى الرواية عنه ، ولقد سلك الشيخ الدردير رضى الله عنه طريق التصوف وأخلص للطريقة حتى كان خليفة لشيخه فيها ولم يكن رحمه الله ممن يرون علم الشريعة قشورا وعلم الحقيقة والتصوف لبابا بل أنه رأى أن العلمين يكمل كلاهما الآخر ، فكتب فى التصوف ، كما كتب فى الفقه المالكى والبلاغة وغيرهما ، كما قام بتدريس الفقه بالأزهر الشريف

---

(١) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ج ٢ ص ٢٣ ط بيروت .

ومدرسة أبى الذهب ، وكان من تلاميذه الذين تلقوا على يديه وفازوا بإجازته إياهم : الشيخ حسن بن سالم الهوارى الذى شرف بمصاهرة الشيخ والزواج من ابنته ـ والشيخ على بن أحمد العياط ، والشيخ سليمان طائع والشيخ محمد خضر والشيخ عبد المعطى دقلية وغيرهم من أبناء بلدته بنى عدى ؛ كما تتلمذ على يديه عدد كثير منهم الشيخ عبد المنعم بن عبد الرحمن بن أحمد الجرجاوى والشيخ عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الوهاب الجرجاوى والعلامة الشيخ محمد بن حمادة بن داود الجرجاوى الشافعى والشيخ بدر الدين بن عبد الرحمن المنشاوى والشيخ رضوان الإبيارى والشيخ عبد العليم الدمنهورى والشيخ أحمد الصاوى والشيخ محمد الشنوانى الذى ولى مشيخة الأزهر الشريف ١٢٣٣هـ ١٨١٧ م .

وفى مجال النضال الوطنى والجهاد فى سبيل الله ضد الحاكم الظالم والمستعمر الغاشم نجد الشيخ زعيما وطنيا من الطراز الأول ، يلهب مشاعر المواطنين ويحفزهم إلى الأخذ بحقهم من ظالميهم ؛ فتلاميذه من أبناء بنى عدى الذين تلقوا على يديه العلم فى الأزهر وأجازهم للفتيا والتدريس وطلب منهم العودة إلى بنى عدى لتعليم أبناء بلدتهم ومن يقصدهم من النواحى المجاورة ، هم الذين وقفوا فى مقدمة إخوانهم العدويين لمواجهة جنود الحملة الفرنسية فى الموقعة الشهيرة التى جعل تاريخها عيداً قومياً لمحافظة أسيوط ، كما أنه رضى الله عنه عرف بمواقفه الوطنية ضد المماليك الذين كانوا يظلمون الشعب ويعتدون على كرامته ففى عام ١٧٨٦ خلال حكم مراد بك وابراهيم بك لمصر ، نزل أحد بكوات المماليك ويسمى حسين بك بجنوده إلى منطقة الحسينية بالقاهرة واقتحموا بيت رجل يسمى أحمد سالم الجزار الذى كان نقيبا لدراويش الشيخ البيومى ، ونهبوا كل ما فى البيت من مال وأثاث فخرج أهل الحسينية بالقاهرة متوجهين إلى الجامع الأزهر وهم يحملون الطبول وانضم إليهم كثير من الأهالى الذين كانوا يحملون النبابيت وفى الأزهر

استصرخ هؤلاء الثائرون الشيخ الدردير لخرج إليهم وشجعهم ووعدهم بأنه معهم وبما قاله لهم : فى غد تجمع الأهالى من الأطراف وإمارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معهم وننهب بيوتهم ، كما ينهبون بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله ، ثم أشار عليهم بالانصراف ، ووصل خبر المظاهرة وحديث الشيخ إلى كبار البكوات فخافوا من تفاقم الأمور فلما كان بعد المغرب جاء عنده منهم نائبا عنهم ممثلا فى سليم أغا ، ومحمد كتخدا الجلفى ، وإبراهيم بك وجلسوا فى الغورية ثم ذهبوا إلى الشيخ الدردير ، وتكلموا معه وقالوا له : اكتب لنا قائمة بالمنهوبات لنأتى بها من محل ما تكون وقرءوا الفاتحة على ذلك وانصرفوا (١) .

« المأثورات الأدبية للشيخ الدردير »

وكما عرفنا فإن الشيخ الدردير رضى الله عنه كان عالما متبحرا واسع الثقافة غزير المعرفة ضرب بسهم وافر فى جميع العلوم الدينية واللغوية التى كانت تدرس فى الأزهر الشريف فى عصره : فقد درس السيرة النبوية وكتب باستفاضة وإلمام فى الإسراء والمعراج ، كما كتب فى الفقه المالكى ، وعلم التوحيد ، والتفسير ، والحديث والبلاغة ولكنه لم يكن كغيره من بقية العلماء الذين صرفوا هممهم إلى التدريس بالجامع الأزهر ، ثم ذهبوا ولم يكد يذكرهم أحد اللهم إلا هؤلاء الذين يهتمون بالبحث العلمى والتنقيب فى بطون الكتب وأغوار المراجع العلمية ولكنه رحمه الله كان مؤذن ذلك رائدا ووصيا يملك مشاعر مريديه ويسيطر على أرواحهم وأفئدتهم بشفافية نفسه وإشراق روحه وصفاء سلوكه ومثاليته فى القدوة برسول الله ﷺ وعدم تفريقه بين علمى الحقيقة والشريعة ونظرته إلى كليهما على أنهما وسيلة تكمل كل منهما الأخرى ،

---

(١) كنز الجوهر ص ١٨٠

ويعين اتحادهما معا على الوصول إلى الله ، كما أنه رضى الله عنه رسم لمريديه وأبنائه الطريق السليم للسلوك الصوفى الرشيد ، .. يقول الدكتور عبد الحليم محمود رحمه الله : فإن الإمام الدردير لو بقى على علوم الكتب فإنه ما كان يزيد على هذا أو ذاك ممن كان فى عهده أو ممن سبقه أو أتى بعده من طواهم الزمان دون أن يخلدهم التاريخ ولكن أساس الخلود فى أمر الشيخ الدردير إنما هى هذه الروح التى بثها فى الأتباع والمريدين والتى ما زال يبثها فى أتباعه ومريديه ، إنها الروح الصوفية والشعور الصوفى فى الطريقة الصوفية التى مثلها ومازال يمثلها إلى الآن والتى سيستمر يمثلها ما بقيت السماء والأرض ، روح الإخلاص ، روح إياك نعبد وإياك نستعين . وإذا أردنا إذن أن نلتمس شخصية الإمام الحقيقية فإننا نلتمس فى تصرفه ، وهى صوفيه متناسقة مع المحيط العام الصوفى ولكن الذى يعطيها مكانتها النفسية أنها نابعة من شيخ المالكية ومن مفتى المالكية العام القمة السيد أحمد الدردير (١) .

والجدير بالملاحظة أن علماء الأزهر فى العصر العثمانى هم الذين كانوا يتولون مشيخة الطرق الصوفية وذلك ليسيروا بالتصوف الإسلامى فى طريقه الصحيح وليخلصوا الطريق إلى الله من أدعياء التصوف من أولئك الدراويش والمجاذيب الذين كانوا وما زالوا يسيئون إلى الإسلام بجهلهم وسوء تصرفهم، وجشعهم وبطالتهم ومن ثم فقد قال الشيخ الدردير فى شأنهم « ومن الناس من يزعم أنه سالك طريق أهل الله تعالى فيتزيا بزيهم ويتكلم بما يوهم الناس أنه منهم والحال أنه بطال يملأ بطنه من الطعام سواء كان حراما أو حلالا (٢) » .

والناظر فى الأدب الصوفى للشيخ الدردير — يجد أنه يتنوع بين النثر

---

(١) أبو البركات سيدى أحمد الدردير ص ٦٠

(٢) ص ٨٣ شرح الخريدة مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣٢٣ هـ

والشعر وهو إما صلوات على النبى الكريم ﷺ أو تضرع ودعاء لله تعالى أو توجيه وحث إلى ذكر الله تعالى وفعل الخيرات ومداومة الطاعات وذلك كله مقتبس من كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى ﷺ . وعندما نستعرض أدبه النثرى رضى الله عنه نجد أن فى مقدمته صلواته على النبى ﷺ التى قسمها عدد أحرف الهجاء الثمانية والعشرين والتى غلب على فقراتها السجع بحسب انتمائها إلى حرف الهجاء الذى جاءت عليه ، وهذه الصلوات تضمنها مصنف له يسمى « المورد الرائق فى الصلاة على أشرف الخلائق » ولم يكن التزام السجع يعتبر عيبا فى ذلك الوقت لأنه كان تقليدا متبعا سار عليه العلماء والأدباء فى إنشائهم وتصانيفهم منذ أن ظهر القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ والذى به وزيرا لصلاح الدين الأيوبى ، وظلت طريقته متبعة منذ ذلك الوقت حتى النهضة الأدبية الحديثة فى مطالع القرن العشرين وبجموع هذه الصلوات على النبى ﷺ فى ذلك المصنف مائة وتسع وثلاثون صلاة تتجه فى الغالب ثلاث اتجاهات .

١ — الصلاة الخالصة على النبى ﷺ كقوله رضى الله عنه : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد عدد ما فى الأرض والسماء — اللهم صل وبارك على سيدنا محمد عدد كل قديم وحادث(١) .

٢ — الصلاة على النبى ﷺ مع ذكر صفة من صفاته كقوله : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد الناطق بالصدق والصواب ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد أفضل من أوتى الحكمة وفصل الخطاب(٢) .

٣ — الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم مقرونة بدعاء الله تعالى لتحقيق خير أو دفع شر فى الدنيا أو الآخرة كقوله . وصل وسلم وبارك على سيدنا

---

(١) مجموع أوراد الطريقة الخلوتية / ١٩٧ ، ٢٠٣ .

(٢) / ١٩٩ المرجع السابق .

محمد وعلى آله واجعلنا مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله صلاة تقينا بها شر الحساد والأعداء(١) . — وكقوله : اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وأزل من قلوبنا حب الرئاسة والشهوات .

ومن النماذج الكاملة لهذه الصلوات ماورد فى حرف الواو :

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى سيدنا محمد الذى مانطق عن الهوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد الذى ماضل عن الحق وما غوى وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وألبسنا بالصلاة عليه لباس التقوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وطهرنا بها من الشكوى والدعوى وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وكف عنا بها الأسى والبلوى ، وصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد والطف بنا ببركتها فى السر والنجوى .

فهذا النموذج يعد نوعا من أنواع الأدعية الدينية التى تنتمى إلى تيار الأدب الصوفى الذى كان الشيخ الدردير رحمه الله أحد أعلامه المبرزين فى القرن الثانى عشر الهجرى وفيه كما نرى خصائص ذلك الأدب من الرقة والبساطة المعبرتين عن الشفافية وتدفق الشعور ، فهو صورة واضحة لنفس مشرقة بنور الإيمان ووضاءة التقوى وتعبر عن الرغبة الصادقة فى تنقية الروح من دنس الشهوات فوق ماتدل عليه من الحب الكامل لرسول الله ﷺ والذى هو من أعلى علامات الإيمان ؛ لأنه من حب الله ، فالصلاة والسلام عليه ﷺ وسيلة للتقرب من الخالق جل جلاله لأنه امتثال لأمر القرآن الكريم الذى يدعو إلى ذلك فى قوله تعالى : (إن الله وملائكته يصلون على النبي يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) وهذه الصلوات التى وضعها الشيخ رحمه

---

(١) المرجع السابق ١٩٨ .

الله واختار ألفاظها إنما جعلها أوراد المريدين يرددونها فى الصباح والمساء وكلما أمكنتهم الفرصة وأعانهم الفراغ ليستعينوا بها على أنفسهم وليتمكنوا من كبح جماح شهواتها وتطهيرها من أوزار الذنوب لأن الصلاة على رسول الله ﷺ تشيع فى نفس المؤمن صفاء وإشراقا يحلق بها فى آفاق روحانية طاهرة وتجعلها تتسامى عن عالم الرذائل ، فهى لمن يعرف فضلها علاج ناجح لكل العقد التى تظلم معها نفس الإنسان من هنا كان علماء التصوف رواة أوائل فى مجال الطب النفسى لأنهم بإخلاصهم وقدوتهم الحسنة كانوا ينجحون فى الأخذ بأيدى المعذبين الحائرين من أبنائهم إلى طريق الحياة السوية البريئة من جميع النزعات الرديئة فينقلبون من مجالسهم وقد صفت نفوسهم وسبحت أرواحهم فى أنوار المثل الأعلى وأصبحت كل طموحاتهم تتجه إلى الوصول إلى العالم المثالى عالم الحق والخير والجمال .

كما كان من مأثوراته النثرية رضى الله عنه ما جاء من توجيهات إلى السلوك الصوفى الصحيح فى كتابه « تحفة الإخوان فى أغراب الطريق » وفى هذه التوجيهات نجد ملامح موهبة أدبية أصيلة وملكة نفيسة طيعة يقطف صاحبها ثمار المعانى فى سهولة ويسر ويختار لها قوالب الألفاظ التى تحملها دون تكلف أو تعقيد ، ومن ثم فقد جاء فى أسلوب تحفة الإخوان أدبيا سهلا محققا للغرض فى بساطة ويسر مما يعطينا فكرة واضحة عن الدور العظيم الذى قام به علماء الأزهر فى العصر العثمانى فى تقويم الألسنة وصيانة اللغة العربية من الضياع بسبب تيار العجمة الذى يغمرها من جميع الأقطار يقول رحمه الله موجها إلى السلوك الصوفى القويم :

« إعلم يا أخى أن الطريق عزيزة لا يهتدى فيها سوى المختار وطريق القوم هى تقوى الله التى أمرنا بها فى كتابه العزيز على لسان نبيه ﷺ ورتب عليها سعادة الدارين وحصون المعارف والأسرار الإلهية والتكفل بالرزق من غير مشقة ، وحكم سبحانه وتعالى أن كل من تمسك بها أكثر من غيره

كان عند الله أكرم ... وقد أمرنا الله تعالى بأعمال باطنية تتعلق بالقلب وأعمال ظاهرية تتعلق بالجوارح الظاهرة ونهانا عن أمور باطنية وأمور ظاهرية ... فمن لم يتمسك بذلك فليس بمتق ومن تمسك بها كان من المتقين وفتح له من التقوى معرفة الله عز وجل على الوجه الأكمل عند الله تعالى والأسرار الإلهية والمكاشفات الخفية(١) .

الآثار الشعرية :

وكما كانت للشيخ رحمه الله من مأثورات نثرية منها ماهو علمى بحت فى العلوم الشرعية واللغوية التى عرف بتآليفه فيها ، تناولت منها مايتعلق بالأدب الصوفى وكانت عباراته من محض تآليفه كالصلوات على النبى ﷺ ، وتوجهاته لسالكى الطريق فى تحفة الإخوان ، فإنه رضى الله عنه ترك لنا أشعاراً كثيرة جاء فى مقدمتها ذلك الشعر الذى نظم فيه حقائق علم « الكلام » التوحيد وسماه بالخريدة البهية وكان فى نظمه لها متأثراً بما شاع فى عصره وما سبقه من تقليد نظم حقائق العلوم شعراً على نظام ماعرف فى الوزن الشعرى باسم « المزدوج » ، وهو عبارة عن منظومات متعددة القوافى فى أبياتها مع مجىء الشطرتين فى كل بيت على روى واحد أى على صرف واحد فى نهاية كل شطرة فى البيت كما كان فى مقدمة أشعاره التى تركها رضوان الله عليه تلك المنظومة التى عرفت باسم المنظومة الدرديرية فى أسماء الله الحسنى والتى نظمها

---

(١) تحفة الإخوان فى آداب الطرق : مكتبة الجمهورية العربية مصر ص ٢ وما بعدها .

(٢) كانت للشيخ الدردير رحمه بالإضافة إلى ذلك مجموعة من الأدعية النثرية التى هى مزيج من آيات بدعاء فى القرآن الكريم ودعاء النبى ﷺ ولكننى اكتفيت فى الاستشهاد بما ذكرته لضيق الحال .

رضوان الله عليه تقربا إلى الله تعالى عملا بقوله تعالى « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » لأنه ضمن كل بيت من أبياتها اسماً أو أكثر من أسماء الله الحسنى جل جلاله ، وعدة منظومة الأسماء الحسنى سبعة وستون بيتاً من بحر الطويل التام وأجزاؤه : فعولن ، مفاعيلن ، فعولن مفاعلن مرتان فى كل بيت وهى منظومة شهيرة فى جميع الأوساط الصوفية ولا سيما أبناء الطريقة الخلوتية فهم يتبركون بتلاوتها فى اجتماعاتهم الروحية كورد من الأوراد الثابتة ، ويقول عنها الشيخ الصاوى المريد الأول للشيخ « منظومة أسماء الله الحسنى لشيخنا وشيخ مشايخنا إمام العصر أبى البركات عديمة النظير لاحتوائها على الدعوات الجامعة والأسرار اللامعة ، وهى آخر العلوم الإلهية التى ظهرت على لسانه ، وقد ألقيت عليه فى ليلة واحدة فقام من فوره وكتبها وأخبرنى أنه يقرؤها فى اليوم والليلة ثلاث مرات » .

وقد بدأها رضى الله عنه بالتوسل إلى الله بأسمائه الحسنى وبأسرارها التى أوجد بها المكنونات دنيا وأخرى ثم ختمها بالصلاة على النبى ﷺ التى هى سبب فى إجابة دعاء الداعين ... يقول رضى الله عنه فى منظومته :

تباركت يا ألله . ربى لك الثنـــا   فحمـــداً لمولانا وشكراً لربنا
بأسمائك الحسنى وأسرارها التى   أقمت بها الأكوان من حضرة الفنا
فندعوك يا ألله يا مبــــدع الورى   يقينا الهـــم والكرب والعنا
ويارب يا رحمن هبنا معارفا   ولطفاً وإحسانا ونوراً يعمنا
وسر يارحيم العالمـــين بجمعنا   إلى حضرة القرب المقدس واهدنا

ومنها أيضاً :

ويابادىء احفظنا من الخلق كلهم   بفضلك واكشف يامصور كربنا
وبالغفـــر ياغفار محص ذنوبنا   وبالقهر يا قهار اقهر عدونا
وهب لى أيا وهاب علماً وحكمة   وللرزق يارزاق وسع وجد لنا

وبالفتح يافتاح عجل تكرماً وبالعلم نور ياعليم قلوبنا

إلى أن يقول فى ختامها :

وصل وسلم سيدى كل لمحة على المصطفى خير البرايا نبينا
وصل على الأملاك والرسل كلهم وآلهم والصحب جمعاً وعمنا
وسلم عليهم كلما قال قائل تباركت ياألله ربى لك العلا

ومع أن هذه المنظومة استغاثة يجأر بها العبد الصالح إلى ربه من شر الدنيا وبلائها ويهبه ماينفع به أحبابه الصالحين المقربين من خيرى الدنيا والآخرة فإن الشيخ يرجو فوق ذلك الفضل أن يمنحه الله تعالى من القرب والصفاء وفيوض التجليات مايستطيع أن يفهم به أسرار تلك الأسماء الحسنى فيصبح عبداً ربانيا يحظى فى حضرة القدس بصحبة أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء وحسن أولئك رفيقا ، وتلك الدرجة من المحبة والعشق والطموح إلى الاستغراق فى أنوار الجمال الإلهى والتطلع إلى مشاهدة تجلياته والارتشاف من رحيقها كانت قصارى أولئك المتصوفين الأخيار الذين كان الشيخ الدردير رحمه الله قطبا من أقطابهم وعلما من أعلامهم .

ولم يكن الشيخ رحمه الله بدعا فى نظم الشعر الصوفى المعبر عن حرقة الشوق واللهفة إلى الانغماس فى جمال المحبوب الأسمى جل جلاله والحظوة بقربه والتفانى فى سبيل الفوز بهذا القرب ، فهناك كثير من هؤلاء الأتقياء الأصفياء الذين سخروا شاعريتهم فى التعبير عن هذه المشاعر السامية والطموح إلى الفوز بهذه الآمال الكبار منذ صدر الإسلام ولعل أول ما يطالعنا فى ذلك قول الصحابى الجليل خبيب بن عدى وقد أخذه المشركون ليصلبوه :

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى
وذلك فى ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلو ممزع

وقول الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة وهو يحث نفسه فى غزوة مؤتة على العجلة إلى لقاء الله شهيدا كصاحبيه زيد وجعفر :

يانفس إلا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلى فعلهما هديت

ومثل قول ذى النون الذى توفى سنة ٢٤٥ هـ بمنطقة البساتين بالقاهرة ويقال إنه دفن مع عمرو بن العاص رضى الله عنه فى قبر واحد وهو أول من تكلم عن الأحوال والمقامات وفسر شطحات الصوفية وإشاراتهم :

أموت وما ماتت إليك صبابتى   ولا قضيت من صدق حبك أوطارى
منای المنى كل المنى أنت لى منى   وأنت الغنى كل الغنى عند إفقارى
وأنت مدى سؤلى وغاية رغبتى   وموضع آمالى ومكنون إضمارى
تحمل قلبى فيك مالا أبثه   وإن طال سقمى فيك أو طال إضرارى

وغير هؤلاء كثيرون جدا لايكاد يأتى عليهم الحصر ولا يتسع لهم مثل هذا المجال فقد ازدهت بهم عصور الإسلام المختلفة وشرفت بهم أقطاره ، وكان ممن وجد منهم فى عصر الشيخ الدردير الشيخ مصطفى البكرى المتوفى سنة سنة ١١٦٢ الذى يقول معبرا عن سكر المحبين وتذللهم :

اشرب واطرب لاتخش سوى   إياك تمل عن ذا النهج
كم أنت كذا ، لم تصح ، أفق   وإلى الابواب فقم ولج
مولاى أتيتك منكسرا   وبغيرك شوقى لم يهج
وأتيت إليك خليا من   صومى وصلاتى مع حججى
وكذا علمى وكذا عملى   وكذاك دليلى مع عججى
لاأملك شيئا غير الدمع   مخافة أن يفشى وهجى(١)

---

(١) مجمع أوراد الطريقة الخلوتيه ص ٢٧٦ .

وكذلك الشيخ عبد الله الشبراوى الذى نظم قصيدته البائية فى مديح النبى ﷺ بعد زيارته لقبر النبى ﷺ ، ومن المعروف أن المدائح النبوية كانت من أهم الأغراض التى اتجه إليها شعراء الصوفية تقربا إلى الله تعالى بحب نبيه الكريم وآل بيته الأطهار يقول الشبراوى :

مقلتى قد نلت كل الأرب   هذه أنوار طه العربى
هذه أنوار طه المصطفى   خاتم الرسل شريف النسب
يانبى الله مالى حيلة   غير حبى لك ياخير نبى
عظم الكرب ولى فيك رجا   فيه يارب فرج كربى
وتدارك ما بقى لى فلقد   ضاع عمرى فى الهوى واللعب

كما يقول الشيخ الحفنى شيخ الطريقة الخلوتية الذى أخذ عنه الدردير أصولها :

ضل الغرام الصعب ومعه دمه   حيران توجد الذكرى وبقدميه
واسمع به بملاقات علقن به   لوا طلعت عليه كنت ترحمه

وقد قلد الشيخ الدردير فى النظم فى أسماء الله الحسنى كثير ممن جاءوا بعده ومنهم تلميذه فى الطريق الشيخ أحمد الشرقاوى التى عرفت له منظومته التى مطلعها :

يارب بالحسنى من الأسماء   أشرق شمس القرب فى سمائى
وافتح صميم القلب يا ألله   وامزجه بالتوحيد يا مولاه

والتى خالفت منظومته الشيخ فى وزنها حيث جاءت من بحر الرجز التام المزدوج الذى تعددت فيه قوافى الأبيات وكانت عدتها مائة بيت وستة أبيات .

الخريدة البهية للشيخ الدردير :

وهى من الشعر العلمى الذى نظمت فيه حقائق العلوم وقد نظمها الشيخ رحمه الله فى حقائق علم التوحيد بفروعه الثلاثة الإلهيات والنبوات والسمعيات ولكن الحديث عنها لسببين : أولهما أنها نوع من الإنتاج الشعرى للشيخ وثانيهما أنه غلبت على أبياتها النزعة الصوفية التى تلمس من خلال التعبيرات ومن ثم فهى من الشعر العلمى المتأدب إذا صحت هذه التسمية وهى واحد وسبعون بيتا من بحر الرجز المزدوج وفيها يقول :

وينطوى فى كلمة الإسلام　　ماقد مضى من سائر الأحكام
فأكثر من ذكرها بالادب　　ترقى بهذا الذكر أعلى الرتب
وغلب الخوف على الرجاء　　وسر لمولاك بلا تنائى
وجدد التوبة للأوزار　　لاتيأسن من رحمة الغفار
وكن على آلائه شكورا　　وكن على بلائه صبورا
وكل شىء بالقضاء والقدر　　وكل مقدور فما عنه مفر
فكن له مسلما كى تسلما　　واتبع سبيل الناسكين العلما
وخلص القلب من الأغيار　　بالجد والقيام فى الأسحار
والفكر والذكر على الدوام　　مجتنبا لسائر الآثام

رحم الله الشيخ الدردير رحمة واسعة وجزاه عن العلم والإسلام خير الجزاء .

دكتور أحمد منصور نفادى
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية بأسيوط